

تصويب

- شطب جملة " عن نجيب خلف " الواردة في ص. 83 عمود 1
سطر 20 .

- استبدال جملة " لدى وفاة نجيب " بجملة " لدى وفاة يوسف "
الواردة في ص. 86 عمود 2 المقطع 111 سطر 1 .

By Abraham Joseph Khayat

Majid Bate Khalaf 1882-1948 = 66 years old

Arab scholar - 9 books

friend of Khaleel Botros

شخصية فلسفية وراء مجلدات الحقوق وكتب الشعر

فقيه القانون نجيب بك خلف يهض العربية عربون حبه ووفائه

إعداد: إبراهيم يوسف خلف*

لا يزيد النفس ضمناً وحسرة على مشروع فقيد اللغة العربية الأكبر الشيخ د. عبد الله الملايلي، ورحيله قبل أن يرى مشروعه اللغوي الكبير، ومعجم الملايلي، انور، فيصدر بأكمله (إذ لم يصدر منه سوى جزء واحد من أصل ثلاثين جزءاً)، إلا بقاء ومعجم معالم اللغة، نفقيه اللغة العربية والقانون، الأديب والشاعر الراجل نجيب بك خلف، مهلاً في أقبية مسقط رأسه، بسكتنا، منذ وفاته في العام 1944؛ وهو اليوم في عهدة أبنائه وأحفاده الذين يدركون، على الرغم من سميتهم الراحثت لتشر هذا المعجم البائع ستين مجلداً، أنهم اليوم لا يمتلكون إلا بضاعة كاسدة في بلد تروج فيه كل أنواع البضاعة، باستثناء بضاعة الفكر.

كتب بعنوان: معالم اللغة، معجم مستحدث في اللغة العربية وأدابها). فإذا كنا نتساءل جميعاً كيف أن العربية، هذه اللغة الغنية القادرة على التكيف، كما أثبت تاريخها، قد جمدت جموداً عجيباً حيال التطور الحضاري، فإن لغة لها طواعية لا حد لها، كالعربية، ما كان لها أن تتخلف أو تهين أو تضعف. فالسؤال إذن ليس في طبيعتها ذاتها، بل في التفرغين عليها، الذين أخذوا بها ماخذ التزمت والسماع (محمود عارف الأكل).

من هو الرجل؟

ولد نجيب خلف في بسكتنا (جبل لبنان) في الخامس والعشرين من شهر نيسان/أبريل من العام 1882، وتعلم كنيسته ميخائيل نعيمة، في المدرسة الشرقية البسكتناوية التي كانت تديرها البعثة الروسية، ومنها انتقل إلى مدرسة سوق الغرب الأمبركية، حيث أكمل دراسته الثانوية. درس الحقوق على اثنتين من شيوخ الشرح والقانون، وهما: سليم باز (أفضل شراح بالجدّة، في العالم العربي) والشيخ الياس كسبار. مارس مهنة المحاماة مدة أربعين عاماً، كان أثناءها مثلاً لا مستقامة، فقد كان قساً معمارياً متشدداً (سليم في العام 1911) يحاسب نفسه

فإذا ما كانت الحرب اللبنانية، وزسر التقاليد والمايئين بمقدرات الوطن وثرواته الفكرية، قد أتت على جهود العلامة الملايلي وأطاحت خطط معجمه ومخطوطاته التي استقرت عتوداً، فضاقت هباء وراحت طعماً للحرائق، فما التي يحويها اليوم؟ معجم نجيب خلف معالم اللغة، بعد مضي واحد وستين عاماً على وفاة هذا اللغوي الكبير، وهو معجم قال فيه عبد الوهاب عزام بله، يوم انعقاد المؤتمر اللغوي العربي في لبنان في العام 1947 (ثلاث سنوات بعد وفاة نجيب خلف): «إن معجماً مثل هذا هو عمل جبارة لا عمل فرد. وإنما لجريمة أن يبقى كثر كهذا من دون تشن.. جريمة؟ نعم، بحق اللغة العربية وبحق أهلها: فاللغة، وتطبيق عليها سنن الحياة من نشوء وارتقاء وهمم وشيخوخة وموت، انطباقها على كل شيء حي، فإذا سلّمنا بهذه النظرية، وجب علينا أن نرتعد فرقاً للجمود الذي يخيم عليها، وأن نتنادى، ليمت الحياة فيها من جديد. فجمودها يدل على جمودنا نحن، وعلى تقاعسنا في مضمار التقدم والرقي»، كما ورد في مقالة محمود عارف الأكل، وهي بعنوان: نجيب خلف اللغوي والأولف، (نشرت في

* كاتب من لبنان

معجماً (لكنه لم يُطبع) يربو حجمه على معجم المحيط، نحواً من خمسة أضعاف. ولقد استنفد تأليفه ومعجم حياته. وفي سبيل هذه الموسوعة كان يُطالع كل سنة آلاف الصفحات، بين مراقيب الجسات، ريثما تأتي نوبته في المرافقة.

نظم قانون الجزاء العثماني شعراً

غير أن بولس سلامة يُجري في كتابه بعض النقد لأسلوب نجيب خلف فيقول: «وعلى إحاطته باللسان المرثي، ويُعد إيراكه في أصول الفردات وأساليب الأداة، وتصديقه للنظم والنثر والخطابة، لم يحالفه التوفيق، بل ربما نذر الناس فأمرضوا عن قلمه، ومرّ ذلك إلى رغبته في الإطالة المملة، وشغفه بالغريب من الكلم، واهمه سآله لحلاوة اللفظ وموسيقاه في السامع.»

ولم يبلغ من قدرته اللغوية في نظم الشعر أن نظم قانون الجزاء العثماني في أرجوزة مطلمها: قال نجيب خلف اللبثاني الحمد لله المهيمن الرحمن

ويطغ، هذا نغّم قانون الجزاء وقد توخيت به أن أوجزا



نحسب لك خلف
(1882-1944)

ويروي بولس سلامة كيفية لقائه بنجيب خلف فيقول:

«يوم التقينا في قصر العدل، كان يبحث عن مستخرج في معهد الحقوق الفرنسي، بسبب التقضاء المختلط يومئذ، لأنه كان ضيق المعرفة باللغة الفرنسية. ولقي سواي من خريجي ذلك العهد. ومعظمهم يتوقني بلغة راسين، بيد أنهم يكادون لا يتقنون معنى رسالة عادية بالعربية، فكيف بهم إذا تاهوا في تمت بصوص محنة الأحكام العدلية، أي المتعاون المدني تقام يومئذ؟ كان صاحبنا أحمق ما يكون إلى ضليح بـتفرنسية ولكن بينهم عربي، لذا قال لي فور لقائه بي: وجدت فيك طابقي، فقلت: وأنا بهذا القول أجدس. ولقيت معه مرشداً ورفيقاً وصديقاً وفيماً، وأفدت من علمه باللغة قسماً غير قليل. وبنا تأمل في العام 1931، في ما أذكر، وكنت

على المهمة مهما كانت بسيطة.

أنشأ في العام 1910، بالتعاون مع أخيه ملحم، وكان هو الآخر محامياً أليماً، وسليم العوشي، مجلة «الحقوق»، أول مجلة حقوقية في جبل لبنان. ومن مؤلفاته الفقهية، «الشكاة المفضية للأصول الجزائية»، التي بقي مخطوطاً ولم يُنشر. وله مؤلفات في اللغة، منها كتاب «لاداء»، الذي بحث فيه الأسباب التي دعت النحاة إلى وضع أصول البناء والإعراب. وكان في العام 1903 أنشأ جريدة «المدارس» في برمانا، حين كان طالباً فيها، وباشر الكتابة في «الصحف وهو لا يزال فتى تلميذاً، فكتب في «المنار» و«النور» و«النصير» و«البنان»، و«الأحرار» و«التنهان» و«الروضه» و«واللسان» و«الأرز».

غير أن أهم مؤلفاته على الإطلاق، معجم «معالم اللغة»، الذي قال فيه شاعر الخطيرين خليل مطران لواقعه، يوم تصفحه: «بأنك يا أستاذ ما نقلت معجماً، بل نقلت جيلاً.»

وضع الشاعر بولس سلامة كتاباً من نجيب خلف بعنوان «حكاية عمر»، صدرت الطبعة الأولى منه في العام 1962، قال فيه:

«كان نجيب خلف واحداً من النخبة الأولى أنشأوا أنفسهم إبشاء، فخلقوها خلطاً جديداً. فخلق سواه أو تخطمه في الطبع بالشرح بعض متفهمني الرعبيل الأول من زملائه، أو ناقسه في استكناه العقوانين والأظمة نغّم من القضاة والحايمين، فلققت تفرّد، رحمه الله، بخصائص ومشارك لم تجتمع لها يشبه. وقد شامت المصادفات الموقفة أن أصرف معظم وقت تدرسي بالحاماق، في مكتب الأسوف على علمه وسجاياه، الروحوم نجيب خلف؛ فلقد صرفت زهاء سنة ونصف متنزجاً في مكتب ذلك الحامي الجليل. ويسرني ويشجيني أن أنتشر تكريات طواها الزمن، في خمس وثلاثين مرة دارت بها الشمس حول الأرض. أكتبها وكأني أعانيها أو أعيشها (على لغة الجديدين) الساعه.»

ويقول سلامة في كتابه: «كان نجيب خلف متبحراً في اللغة العربية حتى لينس مثله في اللادهجين بالفضاد. فقد ألف



ولا بد من الإشارة إلى أن بولس سلامة نشر هذه القصيدة كاملة في جريدة «الليون» بامضاء مستعار. ويروي سلامة في كتابه «حكاية عمى»، قائلا: «التقيت في اليوم التالي لنشر القصيدة، الشاعر الكبير والحدث الأتيق صدقي الغالي، اللغور له الشيخ أمين تقي الدين، على ساحة البرج، فعانقتي ومثنائي، فقلت: ماذا؟ فأجاب: يا بولس، لقد انتقلت للثوق الشعري من نجيب عن خمسين سنة خلت وعن خمسين تجيء». فحوادث الإثبات، فقال: بل أنت صاحبها، فضحكنا وضحك أكثر منا نجيب خلف نفسه».

يذكر بولس سلامة في كتابه بعض خصال ومزايا نجيب خلف، فيقول:

«كان يشغل باطراد سحابة ثلاث عشرة ساعة كل يوم، وربما نيف على هذا التقاد، فأبلغها الخمس عشرة ساعة في أكثر الأيام، يعمل في المكتب والبيت والسيارة والقطار والمحكمة، ماشياً أو قاعداً أو مستلقياً، فيتمنر عليك أن تراه، في سوي ميعاد الأكل والنوم، إلا قارئاً أو كاتباً، يحسب الوقت من ألاس لا من ذهب، ويعتبر اللهو والعبث وارتياق القاهي ودور السينما والسمر والكسل - ولو أنه في سبيل الراحة - أرجاساً من عمل الشيطان فيتجنبها، بوصفه جندياً وقف حياته على تحصيل المعرفة، وبصفة كونه قسيساً إنجيلياً متشدداً يحاسب نفسه على الهفوة اليسيرة، ولا أذكر - على طول صحبتي له في الحمامة وبعدها - أنه هم بكلمة ثانية، فقد كان يغضب ولا يأنم. ومن خصائصه تعظيمه لرجال العلم، وأذكر أن رجلاً أزمناً جاءه ذات يوم ليؤكده بدعوى جزائية، فتناضاه سبع ليرات عثمانية. ولما عرف أن موكله دكتور في الفلسفة، أعاد إليه المبلغ، فسأته في ذلك، فأجابني: هذا رجل علم وهو رصيف لنا، فخذتمه فرفض علينا».

حين بلغه نعي الأب العلامة لويس شيخو اليسوعي، بكى بكاء مراً غلده الشاعر بولس سلامة في مقالة نشرها في صحيفة «الأحرار» بعنوان: «انجيلي بيكي راهباً يسوعياً».

طرائف قصص العدل

وتحت عنوان «طرائف قصص العدل»، كتبت مجلة «الحمامة»: «وقصر العدل، إن هنا أو في أي بلد من بلدان العالم، كان ولا يزال الميدان الرحب للكثير من الحوادث الطريفة (...). والطرائف التي يشهدها قصر العدل، عديدة، لا يحصرها إحصاء. وأحراها بالرواية ما كان يحدث في أيام الانتداب، أيام كان قصر العدل الملاذ الوحيد لكل حرية استبيحت، أو كرامة امتهنت، والحراب الوحيد الذي كانت ترتفع فيه أصوات المظلومين دون أن يتجرأ الظالم على أن يطأه بسوء».

يومئذ قاضياً في محكمة بيروت البدائية، هناكه بإببات لزمتم فيها الجب، وداعبته بأرجوزة، وهي من طراز أراجيزه في

الغرابية، أذكر منها قولي:

قال اللقي الجهبت اللبناني
الحمد للمهمين الرحمن

عمت صباحاً يا نجيب الخلف
حفاظ كل حادث مستطرف

ويعد أهدى واقف التهاني
للعلم الزخار من قحطان

تلك العروس طالما نشدتها
قل لي باي معجم وجدتها

دع عنك حيناً أذعاء الادهي
وما رواه أحمد والزبالي

ولم تلق الأبحر والهندية
وكل تلك الكتب التسمية

بالله لا تعرف عن العروس
بالبحث والتقيب في القاموس

يا عالماً مستمسكاً تقياً
لم يخسر الأعراب فيك شيئاً

قلبيها العريس بالعروسة
ولينعم القسيس بالقسيمة

يا أيها القمائل الخضم
والناخع الحبر به قائم

الكتير اللهموم والقطريف
يقصدك الكفرج واللاهوف

جاءتك رقيباً بحسن جهها
ذكرني بجفها لفظ اسمها

طمسك ذاك الأكل الصبير
بدون بوز، آب باليسير

خزائن للفقه واللعنة، علة جزالة بيانها ودقة سبكها، وأنه لم يدور فمّن يتبحر في القانون، صرف وكده إلى المنطق والبرهان، وكلاهما حرب على الخيال المجنح الذي به ينهض الشمر وبه يطير. ولقد أحاط الخلف باللغة أينما أحاطه، فارتفعت الكلفة بينه وبين المفردات، وأمسى غريبها قريباً إليه،.

من شعر نجيب خلف:
تتكرت الأيام واستعجم الدهر
وقد ملأ الدنيا التعمُّف والغدر

وجاشت نفوس الناس غضبي وانما
لغير مروءات أطاح بها الوغر

فقتل بعض الناس بعضاً كأنما
بُغاث سواد الناس والسائد الصقر

بل الوحش لا يسطو على الوحش مثلهم
ويع صدرهم جلّ وفي خلقهم غمر

تضربهم الأظماغ والحيثف والعبدا
ويصورهمو للمثك خلطهم الوعر

وكم جالغ في الناس ما رد طفنيه
يسومهمو خسارة العبيد ويضطر

وكم ذل للجبار قوم ضئيلة
نفوسهمو خسارة حالها زجر

وما الناس إن يعتوا سوى الناس قد غرّوا
وغرهم ذل الأصغر فاعتزّروا

يسود الفتى إن سؤدوه عليهم
فيصبح سلطاناً له النهي والآمر

وكم ساس أهل الحكم قوماً فأرهموا
مناكبهم خسفاً فأصاهم الأمر

وكم سخرُوا منهم عبداً أذلةً
من الضيم أصباء لها ينحني الظهر

متى استعبد الإنسان، والتفنى حرّة
فأين من التفنى الإيابة والكبر؟



ويذكرون عن المرحوم نجيب خلف، أنه كان قانونياً وعبوياً، وكان من الذين يثورون لأقل مخالفة أو اقتتات على القانون. وكان شديد الغيرة على لغة البلاد، وكثير الكره للانتداب ولعلميه. فلهي مرة لكي يتراجع في قضية ضخمة ميسوطة أمام المحاكم المختلفة. وعند موثله أمام المحكمة، راح يتراجع بالعربية. فثارت ثائرة رئيس المحكمة، وكان فرسباً، وطلب إليه أن يكف عن المرافعة بالعربية، فأبى الأستاذ خلف، وأصر على المضي في المرافعة بالعربية. فأبى رئيس المحكمة أن يدعه يتابع، ورفع الجلسة، ووقعت الواقعة؛ فلا المحامي خلف يتخلى عن دعوى أحد من زملائه الذين يحذقون الفرنسية، ولا هو يقبل أن يتراجع بالفرنسية. وكانت حجته أن العربية هي لغة البلاد، وأن ما من سلطة قضائية في البلاد، تستطيع أن تمنعه من أن يتراجع لديها

بالعربية، وما على القاضي الفرنسي إلا أن يتلم العربية، أو أن يستعين بترجمان. وبعد أخذ وردّ طالا جداً، وبعد اتصالات عدة بين نقابة المحامين ووزارة الداخلية والفرنسية العليا، عادوا وأقررو الأستاذ خلف على رأيه، وأباحوا المرافعة بالعربية، واستعانوا بترجمان يترجم أقواله...

وفي الكلمة التي ألقاها الشاعر بولس سلامه بمناسبة إحياء الذكرى العشرين لوفاة نجيب خلف والتي نشرتها جريدة «الصفاء» (بتاريخ 1964/6/28) تحت عنوان: «نجيب خلف معرفة ومروءة وبقظة ووجدان»،

كان يُعزي نجيب خلف نهاره في العمل المتواصل، فيقول: «...ولشئ ما كانت دهشتي حين صموت في الساعة الثامنة، فرائته يتأبط أوراقاً صغيرة ملونة، يشعلب فيها وزيت، وهي جوامع مفردات لغوية، كان يُعدها لجمعه الضخم، بل الوسوسة التي استنفدت حياته، ولم تزل إلى اليوم تنتظر من يصورها. فقلت له متى تنوق طعم الراحة؟ فقال: اتبعني، تر كيف أرقه عن نفسي، ثم دخل غرفة منامه، وقد أخذ له فطور الصباح على صينية علت خزانة، خلفها مرآة كبيرة، أمامها أدوات حلاقة. ثم دعا شقيقته أئينا وشقيقه بنايوت فجلسا، ووقف بينهما وشرع يحلق ويأكل ويُطلي على أخته فهرست مجلة «الأحكام العدلية»، وعلى أخيه قصيدة يتكلم بها على مجلس النواب المتفرد التصاب».

«...» وكان يقرض الشعر للترفيه، وفي كل الأغراض ما عدا الغزل، ولقما أنه للعنصر الجمالي في ما نظم، فكانت قصائده

والصناعة والفن على طريقة حديثة مستطرفة..

نصوص مختارة لنجيب خلف

■ بينما كنت أطلع في كتاب «أعمال الرسل القديسين»، عثرت في الآية السابعة من الفصل التاسع على ما نصه: «أما الرجال المسافرون معه (أي بولس) فوقفوا صامتين يسمعون الصوت ولا ينظرون أحداً». ثم أطلعت في الكتاب المنوّه به على هذه الآية، والذين كانوا معي (أي مع بولس) شاهدوا النور وخافوا ولكنهم لم يسمعوا صوت الذي كلمني، (1 ع 22:9). فمن المقابلة بين هاتين الآيتين يظهر تناقض ولما كان الكتاب المقدس خالياً من كل مناقضة، أتيت بهذا السؤال راجياً المنار، الساطع أن ينير البصائر لرفع التناقض وزوال الإشكال. المنار، دورية للروم الأرثوذكس

(بسكتنا، نجيب إبراهيم خلف)

■ في العام 1916، كتب نجيب خلف عشر قواعد للحياة اليومية، وهي:

- 1 - كُن مع الله وأحبه وابعده وأطعه واتكل عليه واختبر ما هو مرضي عنده واذكر خالقك في أيام شبابك.
- 2 - أحب القريب وساعده واشعر مع المسكين واعمل الخير للجميع وكن نافعاً للجماعة ولا تكافئ عن شر بشر.
- 3 - اجتهد واصبر واحتمل واثبت.
- 4 - كُن أميناً لله وللناس ولنفسك وصادقاً في كل شيء.
- 5 - كُن حكيماً ومدبراً ومعتدلاً في كل شيء.
- 6 - اقتصد لنفسك وللآخرين.
- 7 - اهتم بكل شيء ولا تهتم بشيء.
- 8 - اعمل الواجب لأنه واجب وكن شريفاً في كل عمل ولا تهمل شيئاً من الواجب مهما كان صغيراً.
- 9 - جاهد لأجل الحق وكافح الشر واقتن الحق ولا تبعه.
- 10 - اذكر الله في كل عمل وأمر، واذكر أن الله يحضر كل عمل إلى الدينونة.

III - لدى وفاة نجيب إبراهيم خلف، في أوائل نيسان من العام 1978، قام ألبرت فرحات الرئيس الأول لمحكمة التمييز بزيارة منزله في قرن الشباك للتعزية. وتكلم عن نجيب خلف، فقال:

«كان المحامون على أيام الأتراك يوقعون لوائحهم بلفظة «بند»، فولان. ولفظة «بند»، من أصل فارسي ومتداولة كثيراً في اللغة العثمانية وتعني العبد والرقيق والتابع الخ.. لم ترق هذه اللفظة للأستاذ خلف، المعروف بعنفوانه وكرهه الشديد لأي احتلال، فجمع زملاءه وتنادوا جميعاً بعدم استعمال هذه اللفظة وكان لهم ما أرادوا».

وضع نجيب خلف مقدمة لمعجمه «معالم اللغة»، استهلها بما يلي: «إذ كنت قد شرعت منذ ثلاثين سنة في وضع معجم مطوّل (يبلغ زهاء ستين مجلداً) بقطع المعاجم الكبرى، بحيث يؤلف المجلد الواحد منها ما يزيد على ألف صفحة ونيف) تورّد الكلمات فيه على ما آلت إليه في الصيغة، لا على ما كانت عليه في الأصل فقط. وذلك بحيث تُردُّ (أُتكل) مثلاً (إ) ت ك ل) ويُشار فيها إلى أن أصلها افتعل من «وكل، حتى إنه تورّد كلمة «الاتكال»، وهي مصدرها في إ ت ك ال وحدها، وحين تُذكر «وكل، يُشار إلى ما يطرأ على مشتقاتها من إعلال وإبدال وإدغام إلى غير ذلك، وبحيث يورد على كل كلمة ما يناسبها أو يواردها أو يقاربها أو يوائمها أو يضادها من الألفاظ والعبارات والجمل وما ورد عليها من حكمة ومثل. (...) وجعلت له مقدمة تبلغ زهاء أربعة آلاف صفحة، تتضمّن أبحاثاً في متن اللغة وأصول الكلمات وأوزانها وفلسفة الحروف وتركيبها...».

■ ■ ■

كان يشتغل باطّراد سحابة 15 ساعة في أكثر الأيام، يعمل في المكتب والبيت والسيارة والقطار والمحكمة، ماشياً أو قاعداً أو مستلقياً، ويتعذر على المرء أن يراه، في سوس ميعاد الأكل والنوم، إلا قارئاً أو كاتباً، فالوقت لديه من ألماس لا من ذهب

■ ■ ■

ويُنهي مقدمته بما يُشبه الوصية، قائلاً: «إن هذا المعجم سيكون ديواناً حديثاً، وجمهرة لفقّه اللغة ولآداب العرب، تقرأ منه تاريخهم وأخلاقهم في لغتهم بمختلف الصور والأشكال، ومحفزة للخلف لاستعادة أمجاد السلف... ولم أقتصر في جمع ذلك ولفظه على الأخذ من المعاجم المعروفة فحسب، ولكني جمعت من كتب الأدب والفن، بل جمعت فيه كل ما وصلت إليه يدي من كتبهم، وقد قرأت له نحو مليون ونصف المليون صفحة، استخلصت منها ما رأيت ولخصت ما رأيت. وأنا على اعتقاد ويقين أن في كل كتب الأدب والفن ما يؤلف وحده معجماً كبيراً مستقلاً كاللسان وكالتاج. وكان من يقنتي هذا المعجم يقنتي مكتبة مختارة من ألوف الكتب من العلم والأدب

